عشوائيات العقل.

قصص

القصة الأولى.

(تحت ظلال الأحزان سألنا)

كانت السماء ملبدة بالغيوم، كأرواح مثقلة بالهموم، تئن تحت ثقل الأحزان، تلك الغيوم المتراكمة كانت تنذر بعواصف قد تعصف بالقلوب قبل أن تصل إلى الأرض، وكأنها تحمل صرخات لم تُسمع، وكانت الألوان تتدرج بين الرمادي الداكن، والفضي الباهت، وتنسج مشهدًا دراماتيكيًا يعبّر عن صراع داخلي.

ووسط هذا السكون القلق، كان جمال يتأمل التوتر الكامن في الهواء، حيث بدا كل شيء في حالة ترقب، وكأن الطبيعة نفسها تحتفظ بأنفاسها، كان انفعال الغيوم ينعكس في نفسه، مُثيرًا تساؤلات عميقة عن الأمل والخيبة، عن عواصف الحياة التي تقترب، لتعيد تشكيل القلوب في جولات من التجارب.

كان صخب الحياة اليومية يتردد في أذنه، كأن الطبيعة تحاكي تناقضاته، وفي تلك اللحظة، جاء أمير صديقه الذي كان ينتظره.

جلسا قرب الحظيرة، حيث كانت الأغنام ترعى في هدوء وسلام، تعكس بساطة الحياة حولهما تباينًا صارخًا مع حزن أمير الذي تجول نظره في الأفق البعيد، حيث تتراص الجبال كحواجز ضخمة، وكأنها تعكس معاناته وتعزله عن الأمل، وشعر بعبء ثقيل على قلبه، وكأن كل ذرة من التراب هنا تحمل قصص الفقراء التي لا تُروى، ثم قال بصوت خافت لصديقه:

- هل سنرى يومًا لافتة أو صندوقًا مكتوبًا عليه تبرعوا لبناء الإنسان؟!

تنهد جمال بحزن وأجاب بمرارة:

- لا أعلم....صدقني، لا أعلم.

في تلك اللحظة، كان كل منهما يشعر بعمق الجراح، ويتأمل في مستقبل قاتم، الرياح تعصف بأفكارهما، وكأنها تحاول إعادة الأمل إلى قلوبهما المتعبة، فتساءل أمير بعد تفكير عميق قائلا:

- ما الثمن الذي يجب أن ندفعه لفهم أنفسنا، وحقائق وجودنا في ظل هذه المعاناة؟"

نظر جمال إلى صديقه، وعمق الحزن في عينيه جعله يقرر أن يشارك أفكاره حول هذا الموضوع، فقال بصوت خافت:

- إن الثمن الذي يدفعه الإنسان في سعيه لفهم ذاته، وحقائق الوجود هو من أكثر التحديات عمقًا، ويتطلب هذا السعي خوض غمار التجارب القاسية، ومواجهة الشكوك الداخلية، والتصدي للحقائق المؤلمة، في هذه الرحلة سنكتشف تناقضات النفس البشرية، وواقع الحياة، صحيح أن هذا قد يؤدي إلى انكسارات، لكنه أيضًا يفتح لنا أبواب النضوج العميق.

توقف لحظة، وكأنه يحاول جمع أفكاره، ثم واصل قائلا :"

- هذه العملية ليست مجرد اكتشاف، بل هي إعادة تشكيل للوعي، نتعلم أن نواجه الظلال، ونستخلص من معاناتنا حكمة جديدة، لذا فإن الثمن المدفوع يُعتبر استثمارًا في التنوير الذاتي، وفتح آفاق جديدة للوجود.

ذهل أمير من كلام صديقه، ومن وعيه وإدراكه لكل شيء، تمنى لو أن والديه جعلاه يكمل تعليمه بدل أن يُجبر على الزواج وهو لا يملك شيئًا، ثم قال بفضول:

- هل يوجد أمل في هذه الحياة للتغيير؟!

أجاب جمال قائلا:

- التغيير يبدأ من القاعدة، إذا تعلم الناس كيف يتعاملون مع معاناتهم بشكل إيجابي، فسيكون لديهم القوة للتغيير.

ثم نظر أمير إلى جمال وابتسم، كأن الأمل بدأ يتسلل إلى قلبه:

- أنت تمنحني الأمل، حتى في أحلك اللحظات."

أجاب جمال بعمق:

- الأمل هو ما يجعلنا نستمر، حتى في وجه التحديات، لكنه يجب أن يترافق مع الواقعية والجهد. لا يمكننا أن نغفل عن العمل الذي يتطلبه التغيير."

وفي تلك اللحظة، شعر كلاهما بأنهما قد أدركا شيئًا عميقًا، رغم الألم والمعاناة، هناك دائمًا إمكانية للتغيير، إذا تم العمل بجد وبقلب مخلص.

بدأت الأضواء تتلاشى في الأفق، وأخذت الغيوم تتناثر شيئًا فشيئًا، كأنها تتراجع أمام شجاعة الأمل. كانت الرياح تعصف بأفكارهما، لكن هناك شعورٌ جديد بدأ يتشكل.

قال أمير بشيء من الأمل:

- ربما، علينا أن نخطط لمستقبلنا، ما رأيك أن نبدأ بمشاريع صغيرة، نساعد فيها من حولنا، ونظهر لهم أن التغيير ممكن.

أجاب جمال بابتسامة:

- هذا هو المبدأ الصحيح، حيث كل عمل صغير يمكن أن يكون له تأثير كبير، وقد يبدأ الأمر بمبادرة بسيطة، ثم يتسع ليشمل المجتمع بأسره.

وفي تلك اللحظة، توحدت قلوبهما، وكأنهما وجدا الإلهام الذي كان ينقصهما، ثم قال أمير بحماس

- فلنجعل من قصصنا وقودًا للتغيير، ونجعل من أحلامنا واقعًا نعيشه.

ابتسم جمال، وأجابه:

- بالتأكيد، فلنبدأ معًا، خطوة بخطوة، نحن هنا لنبني شيئًا أكبر من أنفسنا.

بينما كانت السماء تتحول إلى ظلال من الأرجواني والذهبي، أدرك الاثنان أن الأمل، رغم كونه شعلة خافتة، يمكن أن يضيء طريقًا جديدًا في ظلام المعاناة، إذا ما قاما معًا بنشره وتعزيزه في قلوب الآخرين.

وفي النهاية، كان كل منهما يشعر بأن رحلتهما التي بدأت بحزن، أصبحت مليئة بالاحتمالات، والحوارات التي جرت بينهما لم تكن مجرد كلمات، بل كانت بذورًا لنمو أمل جديد.

القصة الثانية.

(البيتزا)

عاد زوجي من عزومة صديقه، وقد غلفت ملامح وجهه سحابة من الغضب والانزعاج. لم يكن يتحدث كثيرًا، لكنني شعرت بأن هناك شيئًا عميقًا يعكر صفو تفكيره. لم أستطع أن أحتمل القلق الذي انتابني، فتساءلت في نفسي:

-ما الذي حدث له؟!

عندما وضعت العشاء على المائدة، كان مزيج من الاستياء والسخرية في صوته حين قال:

- الأمر ليس مثل بعضه.

استغربت من تعبيره، وسألته بلطف:

- ما بك؟!

لكنه رد بحدة قائلا:

- زوجة صديقي تصنع كل ما لذ وطاب. أين أنت؟ ألستِ الطباخة الماهرة التي عرفتها؟!

تجمعت الدموع في عيني، لكنها كانت تحمل أكثر من مجرد الألم. سكتُ لبرهة، ثم قررت أن أحكي له قصة قد تحمل له درسًا عميقًا.

*****

كان هناك صديقان يتفاخران دائماً بمهارات بناتهما في الطهي، وفي يوم من الأيام، قررا إجراء مسابقة لمعرفة من منهما يمتلك أفضل طباخة.

كانت المسابقة تتعلق بصنع بيتزا، أحضر الأب الأول مكونات وفيرة من كل نوع، بينما كان الآخر محدود الإمكانيات، ولم يكن لدى ابنته الكثير من الخيارات، لكنها أرادت أن تبرز ما تستطيع تقديمه دون أن تُحرج والدها.

استخدمت القليل من الدقيق، والماء، وبعض الجبن، والصلصة، وحاولت جاهدة أن تصنع بيتزا بأفضل ما تستطيع، وعندما جاء وقت التذوق، كان طبق الأب الأول شهيًا ومنظرًا مبهجًا، بينما جاءت بيتزا الا بنة الثانية أقل جاذبية، بل وكانت تنقصها الكثير.

بدلا ً من أن يعترف الأب بنقصه في توفير المكونات، ألقى اللوم على ابنته، متسائلًا أين مهاراتها بـ الطهي، وقال لها:

- انظري إلى تلك الطباخة، كيف أن ذلك الطعام يبدو شهياً وكاملا ً. هذا هو الإبداع!

كثيراً ما يُعمي الغرور أعين البشر عن رؤية نقائصهم، فيبحثون عن عيوب الآخرين، حتى وإن لم تكن موجودة.

هذا السلوك يعكس عجزهم عن مواجهة أنفسهم بصدق، فينسجون من خيالهم عيوبًا لتبرير شعورهم بـ النقص، وبدلا ً من أن يتقبلوا أنفسهم بما فيها من أخطاء، يختارون النقد كوسيلة للهروب من واقعهم.

نهضت من مكاني، وكانت الكلمات تتدفق من قلبي كالنهر الجارف، ونظرت إلى زوجي، وقد بدت عليه ملامح الصدمة، وكأنما تلقى صفعة.

فقلت له:

- أحيانًا نحتاج إلى أن نكون أكثر إنصافًا مع أنفسنا؛ لأننا إذا لم نتقبل واقعنا، سنظل نبحث عن نقص غيرنا لنشعر بتحسن.

بعد لحظة من الصمت، أدركت أن كلماتي وصلت إليه. عرف أنه كان المقصر الأول، ومنذ ذلك اليوم وهو يحضر ما ينقصنا.

القصة الثالثة.

(الذكريات التي لا تموت)

كنت أجلس بجواره تحت شجرة الزيتون العتيقة، وكان النسيم يلاعب وجهينا برفق، كأنه يهمس لنا بأن نحذر من البكاء.

صوت خرير النهر، وزقزقة الطيور، زاد من جمال اللوحة، وأضفى عليها عطرًا لا يُنسى. كانت الطبيعة تُهدي لنا سمفونية رائعة يومًا بعد يوم، ترسم في الأفق تفاصيل الحياة.

ارتشف جدي الشاي ببطء، ثم قال بعمق ووقار:

-"لا يمكن نسيان الماضي، وكأنه لعنة تلاحق الإنسان أينما حل.

كلماته كانت تعبر عن معاناة وجودية، فقد أدرك أن الذكريات ليست مجرد صور عابرة، بل هي أثقال تُثقل كاهل الروح، وأضاف قائلا:

- "لا يمكن سجن الذكريات ورميها في وادي النسيان، بل يجب علينا إخراجها، لنخفف وطأة الثقل الذي يحمله الذهن."

ابتسمت في وجهه، عارفًا أن خلف هذه الكلمات تتجلى قسوة الذكريات، التي تجبره على استرجاع ماضيه السعيد.

كان يعيش في زمن الرفقة والألفة، في أحضان الطبيعة الغنّاء، حيث السعادة والرخاء، أعلم أنه سيتحدث عن صديقه الوفي مصطفى، وعن مآثرهم في الملعب، وكأن تلك اللحظات ما زالت حية في ذاكرته. وكان يذرف الدموع على أطلال بيت أبيه الكبير، حيث كانت الصرخات والضحكات تتردد.

تحت شجرة الزيتون المتجذرة، كنا نتبادل الأفكار حول القلق والحنين في مشهد يعكس عبثية الحياة.

كانت الحياة، بكامل تفاصيلها، تستنزف جدي، الذي كانت تجاعيد وجهه تشهد على الصراعات التي خاضها. كل ندبة تحمل في طياتها قصة، من حب وعمل واجتهاد، والذكريات كانت تعود إليه كأمواج عاتية، تُثير زوابع من المشاعر.

وأخيرًا، جاء الجزء الأكثر سحرًا في هذه اللوحة: منظر الغروب، كانت الشمس تغيب في الأفق، تاركة خلفها شفقًا يزهر بالألوان، كأنها دعوة للتأمل في ماضينا وحاضرنا.

في ذلك المشهد، تمازج الحزن والفرح؛ ليذكرنا بأن الذكريات ليست عبئًا فحسب، بل هي جزء من كياننا، تثري وجودنا، وتمنحنا العبر التي نتعلم منها لنعيش حياةً أكثر عمقًا.

أقوال

1 -"يقولون لي: حاول أن تنسى، فالوقت سيكون بلسما شافيا." لكنهم لا يدركون أن جراحي، مع مرور الزمن، تزداد عمقًا وتفاقمًا، وإن الألم لا يزول، بل يتجذر في الروح، كأنه جزء من الوجود."

********** ********** **********

2رغم أن المجتمع يغرق في الفساد، حيث القتل، والجوع، والفقر أصبحوا جزءًا من الحياة اليومية، إلا أن شيئًا بسيطًا غير متوقع هو ما أشعل غضبهم.

أهدى صالح لزوجته وردة في الشارع تعبيرًا عن حبه وامتنانه. لم يعجبهم ذلك. رأوا أن هذا التصرف غريب وغير لائق، وربما منافي لعاداتهم.

"كيف يمكن أن يحدث هذا في الشارع؟! لديهم بيت لهذا! يا لهم من حثالة!"

كانت تلك العبارات تتردد بغضب على شفاههم. الغضب الذي تفجّر من قلوبهم لم يظهر في وجوههم أمام الفساد والظلم، بل أمام وردة صغيرة.

لكن لم يغضب أو يستنكر أحدهم بهذه الحماسة من قبل على القتل والجوع والفقر. أترى أنهم اعتادوا على الحزن والأسى لدرجة أنهم صاروا يعتبرون الجمال تهديدًا؟! هل أرعبتهم تلك الوردة لأ نها كشفت هشاشتهم، أو لأنهم رأوا في صالح وزوجته صورة لما يتمنونه لأنفسهم، ولم يستطيعوا تحقيقه؟!

كل رجل في هذا الشارع يتمنى زوجة كزوجة صالح، جميلة وخلوقة، وكل امرأة تتمنى زوجًا كصالح ، يعبر عن حبه، حتى لو كان ذلك بلفتة بسيطة مثل وردة.

ولكن لم يتجرأ أحد على الكلام، فكتموا مشاعرهم، وصبوا غضبهم وحقدهم في رفض هذا الشيء الوحيد الجميل الذي لامس قلوبهم في هذا المجتمع البائس.

مجتمع يدّعي الدفاع عن الفضيلة، لكنه يمتلئ بالفساد والرياء، حيث بات الجمال نفسه شيئًا غريبًا بينهم.

********** ********** **********

عندما تحمل رأيًا يعكس حقيقة مُرّة، يتطلب الأمر شجاعة استثنائية، ليست مجرد جرأة في التعبير، بل هي شجاعة تنبع من عمق الوعي ببيئتك. هنا، يُظهر الوعي كصديق وفي، يرشدك خلال تلك الظلمات التي قد تبتلع صوتك. فكل كلمة تخرج من فمك قد تكون بمثابة قنبلة موقوتة، قد تؤدي إلى زعزعة استقرار تلك الجماعة التي تفضل النمط المعتاد.

سؤال*

هل أزاحت الحرب ستار دواخلنا، كاشفة عن مكنونات القلب وحقيقته، أم أن التحولات التي فرضتها علينا الظروف الراهنة هي ما أعادت تشكيل وجودنا الداخلي؟! هل نحن من نعيش تجارب الحرب، أم أن الحرب هي التي تعيش فينا، مغيرةً معالم الروح وتفاصيل الهوية؟!